الباب الثامن

دور الحسبة في إصلاح المجتمع

دور الحسبة في إصلاح المجتمع

كتب صاحب كتاب "النصح والتبيين في تصحيح مفاهيم المحتسبين" مدخلاً يعالج فيه كيف أن نظام الحسبة له دور مهم في إصلاح المجتمع نثبته هنا طلباً للنفع والمصلحة .

أرسل الله سبحانه وتعالي رسوله محمداً ﷺ برسالته الخاتمة، وقضي أن لا نبي بعده [1] وأن رسالة الإسلام باقية إلي قيام الساعة[2]، وذلك كان طبيعيا أن تحمل هذه الرسالة في داخلها عوامل خلودها التي تحفظ عليها حيويتها وبقاءها إلي الأبد ، وجعلها صالحة لقضاء مصالح العباد الأخروية والدنيوية علي مر الأزمان والأمكنة . فكان من عوامل خلودها أن شرع الجهاد ليحمي المسلمون أمتهم ودعوتهم من العادية الخارجة عنهم من غيرهم ، ولتحطيم عناد المحاربين لأمة الإسلام ودولته من أعدائهم. وشرعت الدعوة لنشر الدين وتوسيع رقعته لاستنقاذ الناس من ربقة الضلالة والشرك إلي رحبة الإسلام الفسيحة ، ومن جور الأديان إلي عدل الإسلام وسماحته .

---

(1) قال الله تعالي: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً) الأحزاب :٤٠. وروي البخاري (٣٣٤٢) ومسلم (٢٢/٢٢٨٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بنياناً فأحسنة وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين ". وعن أبي داود (٤٢٥٢) عن ثوبان رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : " .. أنه في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي. وصححه الألباني. وعند ابن ماجة (١٢١) عن مسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول رضي لعلي رضي الله تعالي عنه: " أنت مني بمنزلة هارون من موسي إلا أنه لا نبي بعدي " وصححه الألباني .

(2) روي النسائي في المختبي ١٥٧٨/١٨٨/٣ عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالي عنه قال كان رسول الله ﷺ يقول في خطبته يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ثم يقول بعثت أنا والساعة كهاتين وكان إذا ذكر الساعة أحمرت وجنتاه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه نذير جيش يقول صبحكم مساكم ثم قال من ترك مالا فلأهله ومن ترك دينا أو ضياعا فإلي أو علي وأنا أولي بالمؤمنين .

وشرعت الحسبة – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – لحماية المجتمع الدخل أي من أبنائه إذا حادوا عن تعاليمه .. فيحمي العقيدة والفكر من الابتداع ليحفظلها صفائها ونقائها ويحمي تلك الشرائع من التحريف والتزييف ، ويحمي تعاليمها في واقعها التطبيقي من أن يتسرب إليها التهاون بها ، والتقصير في حقها والعمل فيها بالمعصية ، والدعوة إليها ليكون التطبيق العملي لتلك الرسالة الغراء معبراً تعبيراً صادقاً عما تحمله من مبادئ عظيمة ، فلا يتسرب الخلل إليهما علي الأصل النظري أو التطبيقي العملي مسبباً تآكلاً تدريجياً في ارتباط المجتمع بهما .

ولذلك كان طبيعياً أن يكون لتلك الفريضة أهميتها العظيمة علي صعيد تربية الفرد والمجتمع المسلم ليكون المجتمع ايجابياً تجاه ما يراه من خلل فيسعي إلي إصلاحه ، وتكون تلك الايجابية جزءاً من تكوينه باعتبارها فرضاً دينياً تماماً مثل الصوم والصلاة وغيرها من الفرائض حتى لا ينخر سوس السلبية والاناماليه في بناء المجتمع فيألف الناس الانحراف ويتعايشون معه إلي أن ينهار المجتمع ويسقط ، والحديث عن وجوب الحسبة على الكفاية أشهر من أن ينكر وأدلته منتشرة في كتاب الله العظيم وسنة نبيه ﷺ وأقوال أهل العلم منها :

قول الله سبحانه وتعالي: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

فالآية تجعل الحسبة مناط الفلاح في الدنيا والآخرة ..والأمر ولإن كان للوجوب إلا أن التعبير القرآني مستخدماً " منكم " يدل على أنها فرض كفاية بمعني أنها مفروضة على عموم المجتمع لا علي أفراد بمعني: أن المجتمع مطالب أن يفرز من أفراده وأجهزته من يستوفي شروط المحتسب من علم ورفق وغيرها من شروط ، وأن يكون منهم من يقوم بهذا الفرض نيابة عن المجتمع فإن قام به من يكفيه سقط الفرض عن

(1) سورة آل عمران، الآية (١٠٤).

المجتمع كله ، وإن لم يقم فالإثم لاحق بكل من يقدر عليه شروطاً وأداءً ولا يفعل .

ويقول تعالي: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

قال الإمام الغزالي: " فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتي أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "[2].

ويقول الله سبحانه وتعالي: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3]. فالآية قرنت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأهم فرضين إسلاميين هما الصلاة والزكاة تنبيهاً علي أهميتهما وأنها صفة أصلية في المؤمنين والمؤمنات ثم جعلت ذلك من أسباب الرحمة الربانية .

ويقول تعالي : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾[4].

فالآية في مدحها للأمة المسلمة ووصفها بالخير ، وصفتهم بأبرز ما يتميزون به من صفات وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ويقول تعالي: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[5].

---

(1) سورة آل عمران، الآيات (١١٣ -١١٤).
(2) إحياء علوم الدين (جـ ٢ / ٢٠٣).
(3) سورة التوبة، الآية (٧١).
(4) سورة آل عمران، الآية (١١٠).
(5) سورة المائدة، الآيات (٧٨-٧٩).

لما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مناطاً للرحمة والخير كان تركه سبباً للعن والطرد من رحمة الله – كما حدث مع بني إسرائيل .

وفي هذا المعني ورد عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: "إن أول ما دخل النقص علي بني إسرائيل ، كان الرجل يلقي الرجل فيقول :

يا هذا اتق الله ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض " .

ثم قال :

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1].

ثم قال:" كلا! والله لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن علي يدي الظالم ولتأطرنه علي الحق أطراً ولتقصرنه علي الحق قصراً"[2].

وهذا الحديث مع ما بين من عقوبة نزلت ببني إسرائيل نتيجة تقصيرهم في هذه الفريضة بتشتيت شملهم وتنافر قلوبهم إلا أنها تشير إلي أمر مهم وهو أن رفض القلب للمنكر ينبغي أن ينعكس على الإنسان المسلم وأن يزول عن المنكر ما دام المنكر لم يزل .

---

(1) سورة المائدة، الآيات (٧٨-٨١).

(2) رواه أبو داود (٤٣٣٦) وضعفه الألباني .

وفي حديث أبي بكر الصديق : " ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده "[1].

والحديثان يبينان عقوبات لترك هذه الفريضة غير ما سبق كإنزال العذاب والعقوبة أو تسليط الأشرار ، وعدم استجابة الدعاء وغيرها .

والحق أن الآيات والأحاديث التي تعرضت لهذه الشريعة الربانية أكثر من أن تحصيها تلك الوريقات، وأن كنا قد أشرنا إلي بعض منها فلنبين عظم اهتمام الإسلام بها وشدة إلحاح الشرع عليها بما يناسب أهميتها والتنويع في أساليب الأمر ، والترغيب فيها والترهيب من تركها ، وتشديد العقوبات علي ذلك ، كل ذلك ليترسخ في قلوب المؤمنين الايجابية تجاه التفريط في شرائع الدين وكراهية ذلك والسعي لتصحيح الخلل حماية للمجتمع منه تجاه هذا النهج الرباني الذي يلزم الأمة ألا يكتفي أفرادها وهم يرون أمامهم الجرائم ترتكب من سرقة أو غصب أو غيرها ألا يكتفوا بهز أكتافهم والانصراف تاركين الجريمة تنتهك حرمة المجتمع بل تدعوهم للمساهمة في حماية المجتمع وتجعل من ذلك مناطاً للثواب والعقاب ، وتجعل من تقصيرهم سبباً إلي اللعن والطرد من رحمة الربانية ، ذلك كان طبيعياً أن يسارع المؤمنون علي مر العصور لتنفيذ الأمر الرباني .. وكانت ايجابية المجتمع تجاه الانحراف وسعيه للتصحيح عاملاً أساسياً في رقي المجتمع وحمايته .

وكان طبيعياً أيضاً أن تكون هناك تجاوزات في تنفيذ الأمر إذ أن الناس جميعاً لا يمكن أن يكونوا علي علم بفقه الأمر ، أو تحقق في

---

(1) وري أبو داود (٤٣٣٨) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : بعد أن حمد الله واثني عليه يا إيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها علي غير موضعها (عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) (المائدة :١٠٥) وإنا سمعنا النبي ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم يأخذوه علي يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده . وقال عمرو عن هشيم : وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون علي أن يغيروا ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب . وصححه الألباني .

جميع المواصفات اللازمة فيمن يتصدي له .. بل ومثل كل أمر كثيراً ما يدخل أصحاب الأهواء والأغراض فيه فيزيدوا من التجاوز والخلل في التطبيق .

وبالطبع سعي المجتمع المسلم منذ أيامه الأولي وإدراكاً منه لأهمية ايجابية أفراد المجتمع أن يضع الآلية المناسبة للقيام بالأمر ، وتدارك ما يمكن تداركه من تلك التجاوزات أو التخفيف منها ما أمكن مع الحفاظ علي الصورة التى تفيد المجتمع من هذا الفرض العظيم ، وتحميه من التجاوزات في تطبيقة وتعالجها بما يصلحها .. فكان أن عينوا جهازاً رسمياً للحسبة يقوم هو بالتصدي للانحراف وينتصب للاستعداء عليه ، متخصصاً في ذلك – وهو ما يدخل في عمل الشرطة في هذه الأيام – وهذا الجهاز يملك السلطة والقوة ما يمكنه من حماية المجتمع من هذه الانحرافات وهو المنوط به بقوة السلطة للتصدي مستعيناً بالجند والأعوان ، وبذلك ضاق كثيراً مجال المحتسب المتطوع .

ثم كانت محاسبة المتجاوزين والمقصرين بقدر تجاوزهم تفهماً للدافع النبيل الذي يدفعهم لفعل ما فعلوا .

والحق أن دور الاحتساب في الحفاظ علي تماسك المجتمع المسلم والحفاظ علي كيانه من التهاوي كان عظيماً .. وبقدر وجود هذا الدور الشعبي في التفاعل الايجابي مع مؤسسات المجتمع ، وبقدر ما كان التفهم لهذا الدور واتساع الصدر له ، وتشجيعه – بالحدود الشرعية – بقدر ما متع المجتمع بالهدوء والاستقرار . بينما كان انتشار السلبية في المجتمع والتجاهل والإعراض في بعض الأوقات سبباً في انتشار كثير من مظاهر الخلل والانحراف والمجاهرة ، والاستعلان بها مما أدي إلي انهيار وتفسخ وفساد المجتمع .

ولقد رأينا من أثر تلك السلبية في بعض الأحيان في رؤية الناس للجرائم البشعة كالاغتصاب والسرقة وغيرها تحدث عياناً في الميادين العامة ، ولا يحرك آحاد الناس ساكناً مكتفين بمصمصة شفاهم وهز

أكتفاهم ثم الانصراف خوافاً من الوقوع في مشاكل هم في غني عنها ، بينما لو استشعروا أن دورهم في التصدي لهذه الجرائم لا يقل عن دور الأجهزة المنوط بها ذلك ، والتي قد تغيب أحياناً عن متابعة كل ما يحدق من جرائم ، وإن هذه المجازفة في التصدي للمجرمين تكون مصدراً للرحمة والرضا والثواب الرباني .. بل وإن تلك الأجهزة المنوط بها التصدي للمجرمين يصعب عليها أن تقوم بدورها دون تعاون فعال من أفراد المجتمع حتي بعد انتهاء الجريمة ، وذلك في الضبط والإثبات لو أدرك الناس ذلك لسهلوا كثيراً من فرصة حماية المجتمع من هذه الجرائم ما دامت موافقة للشرع .

ولا يفوتنا الإشارة إلي دور أجهزة الإعلام والدعوة في حث الناس على التفاعل الايجابي مع الأجهزة المتصدية للجرائم ومساعدتها في حماية المجتمع ، وإن تلك الايجابية فرض كفير ذلك من الفرائض يطالب به الناس من أهل الإيمان وتبصير الناس بما قد يقعون فيه من تجاوزات خلال أدائهم لذلك الدور وتصحيح أخطائهم تفهما للدور الشعبي في حماية المجتمع ، وحتي لا تترك الساحة للمجرمين يرتعون فيها .

والحق أن هذا الفرض عاني كثير من الغلو في تنفيذه حتي تصرف البعض وكأنه كل الدين ، ومعيار الإيمان الذي يقاس به الناس ، وتجاهل هؤلاء أنه فرض ضمن فرائض ، وأنه فرض علي الكفاية وأنه فرض آني يرتبط بلحظة المنكر ثم يزول ، بينما فرض مثل الدعوة هي التي يبني بها المجتمع ، ويبصر بها الناس ، ويربي بها المسلمون علي الامتناع عن المخالفة وترسيخ الدين في القلوب .

فالحسبة أمر رباني ولكنها بعض الدين لا كله ، وهي بعض من الدعوة التي هي عماد الدين ووسيلة نشرة ؛ ولذا ينبغي أن يؤخذ الدين والعمل به كله وتكون الحسبة بعضه بحيث لا تطغي علي فرائض أخري قد تكون في بعض المواضع أولي وأهم .

وبعد ... ونحن إذ نشارك في التصدي لقضية الغلو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بجهدنا المتواضع .. إنما نسعي للمساهمة في تفعيل دور أفراد المجتمع بصورة خالية من التجاوز ، والبعد عما شاب التطبيق في مراحل سابقة من تجاوزات كان فيها من الأضرار والمخالفات الشيء الكثير مما فرغ تنفيذ هذه الفريضة من كثير من فاعليتها وأضر بها وبمن قام علي تنفيذها .

والله نسأل أن يهدينا إلي سواء السبيل [1].

❖❖❖❖❖

(1) أسامة إبراهيم حافظ، النصح والتبين في تصحيح مفاهيم المحتسبين، الطبعة الأولي (الرياض، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٤م)، ص ١٧-٢٩ .